

واجبنا الثقافي

نحو الآداب والفنون

للاستاذ اسماعيل مظهر

قال الأستاذ الكبير لولي إستيفن في أول الفصل الثاني من كتابه العظيم «الفكر الانجليزي في القرن الثامن عشر» ما يلي :
إن الكتب التي هي بمثابة الدعائم الثابتة في تاريخ الآداب ، إنما تكون من طائفتين : احدهما طائفة الكتب التي تلخص جدل الماضي ، والثانية طائفة الكتب التي تعد جدل المستقبل والظاهر من كلام هذا الرجل الفذ يتضمن في مطاويه كثيراً من الحقائق التي ينبغي لنا أن ننعم النظر فيها ، ونطيل التأمل والاستبصار منها ، ذلك بأن آدابنا وفنوننا حتى الآن تفقر إلى الطائفتين معاً : تحتاج إلى كتب تلخص جدل الماضي ، وتحتاج إلى كتب تعد البعده لجدل المستقبل .

أما الكتب التي تلخص جدل الماضي فلا سبيل إليها إلا بالترجمة والنقل عن اللغات الأخرى ، لنستكمل بها - في لغتنا العربية المنيفة - الأداة التي تعدنا لجدل المستقبل . وعلى هذا نريد أن ننظر أوسع آدابنا وفنوننا اليوم تلك الكتب التي تتضمن مشاكل الماضي وتعدنا لمشاكل المستقبل ؟

أما الذين هم أميل إلى التفاؤل فيقولون إن ما بين أيدينا من الكتب يكفي لتكوين الآديب الذي يستطيع أن يخاطق القضايا العقلية والنظريات التي سوف تكون عدة الجدل في المستقبل . وعلى النقيض من هؤلاء فئة تذهب إلى عكس ما تذهب إليه الأول ، وإن كل من يعرف مقدار التراث الذي خلفته القرون الأولى ، ويجوز ، بفكره جولة بقطع بها تاريخ سنين قرناً من الزمان ليقتنع بعد الشقة التي تفصل بين أبناء العرب وبين المراجع التي هي عدة لجدل المستقبل ، بلزوم الآداب على درس ما يلخص جدل الماضي ، من آثار الآداب والفنون .

عن لي أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن أخص الرسالة بما أكتب ، إثر سؤال تقدم به إلى صديق من خريجي الأزهر ومن رجال التخصص فيه يريد به أن يعرف المصادر التي يستطيع أن يدرس فيها تاريخ الاسكندر المقدوني وحياته وأعماله ، وقد أراد

وتضرب في شعاب الخرافة وأرجاء التاريخ ؛ وشكسير يراوح في نظمه بين أشكال الشعر المختلفة ، بين الشعر المرسل والدوييت والسونيت ، والفقرات المتراوحة طولاً ، المتداخلة القوافي ، وقد دعى ضرب من السونيت باسمه لما أكسبه بعقريته من مرونة ، على حين ظل المتنبي - وهو الشاعر العظيم المتمكن من اللغة والآداب المطلع على حقائق الحياة - متمسكاً بالشكل الشعري الوحيد الذي وصل إليه من المتقدمين ، وهو القصيدة المصرفة المطلع الموحدة الوزن والقافية غير الموحدة الفكرة ، فلم يمنح الآداب العربي شكلاً ولا موضوعاً لم يكن من قبله ؛ وعاش المتنبي ومات طامحاً إلى الملك وتضريب الاعناق ، ساخطاً على تبريزه في مضمار الآداب الذي كان يحسد عليه ويكاد له من أجله ، ولم يكن شيء من ذلك مما يخطر لشكسبير على بال

وجلي واضح أن هذه الفروق بين الشعارين العظيمين إنما ترجع إلى العوامل الاجتماعية والسياسية ، التي كانت تحيط بكل منهما وتكون نفسيته وعقليته ، وإلى هذه العوامل ذاتها يرجع التباين الشديد بين أبي نواس وأبي تمام والبحرّري وابن العميد وبديع الزمان من جهة ، وبين ملثوث ويرون وشلي وكينس وجييون وكارليل وما كولي من جهة أخرى ، وهو تباين يجعل من المحال تشبيه واحد من الفريق الأول بواحد من الفريق الثاني ، في سيرته في الحياة أو فلسفته الفكرية أو مذهبه الآدبي ، وإن كان من أسهل الأمور استخراج العديد من أوجه الاختلاف والتضاد .

هذا الاختلاف في البيئتين الجغرافية والظروف التاريخية ، والعوامل الاجتماعية والاقتصادية ، والجملة والتقاليد والمنازع ، وهذا التباين بين الآديبين في المشرب والاسلوب والموضوع وشخصيات الأدباء وسيرهم ، كل ذلك يجعل الموازنة بين الآديبين من أمتع الدراسات الأدبية وأحفلها بالدروس والعبر ، وأدعاهما إلى استخلاص المبادئ والنظريات الأدبية ، وإلى التفطن إلى العوامل المؤثرة في الآداب وتنتاجها ، وقديماً قيل : وبضدها تميز الأشياء . ولو كان الأدباء شديدي التشابه وليدى ظروف متقاربة وعوامل مؤثرة متماثلة ، لما كان في الموازنة بينهما كبير ظائل ، ولا كان تتبع ظواهرهما يستحق طويل عناء ، ولا شبيه أن يكونا أدبا واحداً مشتركاً بين أمتين ، موزعاً بين لسانين

فخرى أبو السعود

مقدار ما كان فيه من شغف لبحث هذا الموضوع ، قد اضطر إلى الميل عنه إلى بحث آخر عربي المراجع . بحث من تلك البحوث التي يعتمد فيها على كتب عربية لم يصفها النقد ، ولم يقف على إخراجها للناس علماء أتفقوا من وقتهم في تصحيحها وضبط أعلامها وألفاظها ما يجدر بكتب هي في الواقع مراجع العلم ومآل العالم في البحث

انتهت محاولة ذلك العالم بأن يتحول عن الاسكندر إلى غيره ، لأنه فقد المراجع التي يستطيع أن يتخذها عدة للبحث . ولم ينته الأمر عند ذلك . فقد أرسل إلى أديب من أدباء العراق كتاباً يسألني فيه عن المراجع العربية التي يستطيع أن يخلص منها بشئ من تاريخ تأسيس مدينة الاسكندرية والبحوث التي قام بها الذين عنوا بموضوع هذه المدينة ، ولقد أردت أن ألبى طلب الأديب فبحثت عن المراجع فلم أجد لها أثراً ، ونقت عن الكتب التي ألفت بشئ من تاريخ العصر المقدوني بمصر فلم أقف لها على وجود وفي النهاية اضطررت أن أكتب إليه بأن يستعين بأحد الذين يجيدون اللغة الانجليزية ويراجع ما كتب مهني وهو جارت واردن يفتن ، وأنا على علم بأن حظه من التأليف والبحث سوف لا يعدو حظ صديق الأول :

وبعد فإن أمثال الباحثين كثيرون ، يريدون أن يلخصوا جدل الماضي ، وأن يعدوا العدة لجدل المستقبل ، ولكن عمادهم مفقود ، وسلاحهم مفلول ، على أن ما طلب الباحثان لأهون بكثير مما يطلب غيرهما ، فالتاريخ على ما فيه من عويص المشكلات يهونه نقل مراجعه إلى العربية ، بقدر ما يصعب نقل الآثار الادبية أو الفلسفية ، فلو أن كاتباً أراد أن يكتب في تاريخ الشعر الاغريقي فأى المراجع يقصد وأى الابواب يلبج ؟ ولو أن كاتباً آخر أراد أن يستقصى تاريخ المذاهب الفلسفية التي اندست في ما نظم شعراء الحكمة عند اليونان ، فأى الكتب يستذكر وأى المدونات يدرس ؟ دعك من كل هذا ، وصور لنفسك حال باحث يريد أن يقف على تاريخ العصر الروماني في مصر ، أو أن يقف على شيء من تاريخ الكنيسة النصرانية فيها ، أو أن يقيم من تاريخ الصراع بين الهيئتين السياسية والدينية ، هيكلاً يخلص منه تاريخ شامل لمصر في خلال سبعة قرون حكم فيها الرومان أرض النيل ، فأى الكتب العربية يستوحى وأى الابواب يطرق ؟

أما إذا كان هذا مقدار التفحص الذي نحسه في مراجعنا العربية في مسائل هي أكثر المسائل مساساً بتاريخنا ، فكيف بنا إذا

أن يكتب رسالة في تاريخ هذا الرجل وأن يعتقد في الرسالة فصلاً يبحث فيه العلاقة التاريخية بين الاسكندر المقدوني وذى القرنين الذي ورد ذكره في القرآن الكريم ، وعيناً ما حاولت أن أستذكر اسم كتاب واحد في اللغة العربية يمكن أن يتخذ مرجعاً في مثل هذا الدرس التاريخي الخافل . وهب أن استطعت أن أقفه على اسم كتاب أو كتابين ، على تقدير ذلك ، فهل ذلك يغني عن الرجوع إلى المصادر القديمة التي تصدت لذلك الاسكندر المقدوني وفتوحاته ، مثل فلوطرخوس وإقليدوس وإسطرابيوس وبطليموس ويوستين وكورتيوس وغيرهم وغيرهم من لا تحصىهم الذاكرة ، وهل ذلك يغني إذا أراد أن يكتب في أخلاق الاسكندر عن درس المراجع التي كتبت في فيليبس الثاني أبيه ، والمراجع التي كتبت في صفات أمه أرمياش ؟ هل ذلك يغني عن أن يعرف أن هنالك قصة أكثر ما فيها خرافات تدعى عند الأعاجم قصة الاسكندر ، يرجح الثقات أنها كتبت في مصر في خلال القرن الثالث الميلادي ، وأن هذه القصة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية ما عدا العربية بالطبع ، وأن ذبوع هذه القصة كان سيئاً فيما ذاع عن الاسكندر من الخرافات ، حتى قيل إنه نبي مرة وإنه رسول مرة أخرى ؟

ذكرت للأديب العالم الذي سألتني بمجل هذه الأشياء ، وزدت على ذلك أن درس تاريخ الاسكندر على الصورة التي رسمها يحتاج إلى إلمام بتاريخ الثقافة الهلينية وعلاقتها بغزوات الاسكندر في الشرق ؛ ثم زدت على ذلك أن هذا الدرس يحتاج إلى إكباب على درس جغرافية حوض البحر المتوسط القديمة والمدن التي قامت حقاً فيه وتاريخها وأثرها في نشر الثقافة الهلينية ، ثم درس جغرافية الشرق القديمة من حدود بحر الروم إلى حدود بلاد الهند ؛ ثم زدت على ذلك أنه من المحتوم على من يريد أن يدرس هذا الدرس وينحو هذا النحو أن يلم بتاريخ الصراع بين فارس وبلاد اليونان قبل ظهور الاسكندر ، وأن يلم بالتحاللات التي قامت في بلاد فارس قبيل الفتح المقدوني .

صور لنفسك أيها الباحث بعد ذلك عدد المراجع التي يحتاج إليها باحث كهذا الباحث ليدرس موضوعاً خيل إليه بدءاً أن يحته حين وأن درسه سهل ، وصور لنفسك بعد ذلك مقدار ما يكون في بحث مثل هذا يتم بغير مراجع وثيقة فيه من نقص وجمل وتقليل ، ثم صور لنفسك بعد هذا كله مقدار ما يكون في مؤلف يبرز للناس عفو الخاطر من قدرة على تلخيص جدل الماضي ، ليكون للمستقبل جدله الخاض به ؟ وإني لأقول أسفاً إن صديقي هذا على

وإنك إذا تصفحت رسالة في التاريخ القديم مترجمة إلى اللغة العربية عن الفرنسية، ثم قارنتها برسالة في نفس الموضوع مترجمة إلى العربية عن اللغة الانجليزية أو الألمانية، لتعذر عليك في كثير من الاحوال التمييز بين الاسم العلم الواحد لشدة ما تنافر الناقلان في طريقة نقله إلى العربية، حتى لقد تقدم إلى كثيرون من طلاب الآداب يسألون عن حقيقة اسماء مختلفة عرضت في درج رسائل في التاريخ، وبمقارنتها اتضح لي أنها اسم واحد نقله عدة من المترجمين بصيغ مختلفة في العربية. ولا شك في أن هذه الفوضى الغامرة من شأنها أن تعمى على طلاب العلم وربما كانت سببا في تناقضهم. وإذا وقع التناقض للملين بشئ من آداب اللغات الاروية بسبب ذلك، فأحرى بمن يدرسون باللغة العربية خالصة، أن يكونوا أشد تناقضا وأكثر تطوحا مع الاوهام التي أكاد أجزم بأنها شائعة في أكثر ما يكتبونه ويؤلفونه شيوعا عظيما إذا تعرض أحدهم للكتابة في غير الموضوعات الاسلامية، وما السبب في هذا إلا احتياجنا إلى معاجم لأسماء الاعلام تجري في تعريب الاسماء القديمة والحديثة على قواعد معينة، اللهم إلا ما عر به العرب، وهو قليل، فانه يبقى كما عر به.

خيل إلى بعض المشتغلين بحركة الثقافة في مصر، وتبعوا أطوارها منذ مائة سنة، أن ما نقل إلى العربية من فروع المعرفة كاف لأنه يكون جزءا صالحا من العلم بحقائق الأشياء، والحقيقة التي أحسها تناقض هذا الخيال، فقد أتبع النقلة عندنا حتى الآن طريقين: إما التلخيص وإما نقل تف من المذاهب أو قطع متفرقة عن كتاب الأدب المعروفين، وكلا الأمرين مضر أقصى الضرر بالثقافة الصحيحة، فان هذه الثقافة لا يمكن أن تتلقى تنافا وأساطلا إلا لتكون أدا ناقصا أو علما ناقصا أو فنا ناقصا، والمعرفة اذا اعتورها النقص في الاصول التي تقوم عليها، امتنع عليها أن تكون أداة قوية لحلق التصورات العامة في العلم والأدب والفلسفة. وخلق التصور العام في العلم والأدب والفلسفة هي الغاية التي يجب أن تنتهي إليها الثقافة العامة، هي المثل الأعلى الذي ينبغي أن ينشد من العلم، وهي الهدف الذي يجب أن يرمى اليه التعليم. إذن يكون ما نقلنا إلى اليوم من الآثار العلية والآدية عن المعرفة الجديدة، وبالحري عن الثقافة الاوروية، إنما هو تف وأجزاء، لها من الفائدة على قدر ما فيها من تعبير صحيح عن مذاهب أممها، وقلما يعبر الجزء عن الكل تعبيراً صادقا قوياً من جراء هذا كان ذلك الارتجاج العظيم الذي نشهده في مجال الأدب المصري في مصر والشرق. ذلك بأنه أدب اعتمد على تف من قديمنا وعلى تف من الحديث المنقول عن أوروبا، اعتمد على

أراد أحدنا أن يتخذ من الكتب العربية مرجعاً لدرس تاريخ الاستكشاف الجغرافي وعلاقة ذلك بتاريخ الاستعمار الاوربي، أو التاريخ السياسي لدول أوروبا في القرن التاسع عشر، أو أثر الحروب الاوروية في تكوين التصور السياسي الجديد في القرن العشرين؟

نשמعنا هذه الحقائق بأن أدبنا ناقص، وأن علما ناقص، وأنا مصدودون عن البحث بصواد ليس لنا من يد دفعها ونحن أكثر شعوراً بذلك إذا أردنا أن نؤلف في تاريخ العلم الحديث أو في تاريخ الفكر عامة أو في تاريخ الفنون أو الفلسفة.

مثل الظرف الذي تجتازه ثقافتنا، قد اجتازته من قبل أمم عديدة. والعرب في العصر العباسي، وأوروبا في حدود القرون الوسطى، أقرب ما يمثل به، على أن احتياجنا إلى الكتب التي ندرس فيها شتى موضوعات الأدب والفن، ونكل بها عدتنا في اللغة العربية، ينبغي أن لا يقتصر على كتب المراجع وحدها بل يجب أن يمتد إلى الامهات المؤلفة في مختلف الموضوعات، ففي تاريخ اليونان مثلا ندعونا الحاجة إلى أن تنقل إلى جانب المؤلفات القديمة مؤلف جورج جروت مثلا، وفي تاريخ الرومان نضطر إلى نقل كتاب عمز الذي حلل الحياة الرومانية اجتماعياً واقتصادياً وكتاب انحلال القيصرية الرومانية الذي يبحث الاسباب السياسية التي أدت إلى ذلك الانحلال. كذلك ينبغي لنا أن تنقل إلى العربية كل المراجع التي تعالج تاريخ الفكر وثورات العقل وأن نلم بكل ما يتاح لنا الاطلاع به من المظان التي توسع من أفق العلم بأخبار الأمم وحالاتها وأسباب ارتفاعها وسقوطها

أضف إلى ذلك أن أدبنا تنقصه المعاجم الكثيرة. فهل يمكن لأديب باحث أو عالم متفرغ للعلم أن يستكمل عدة البحث بغير معاجم قريبة التناول سهلة الأسلوب؟ وإذا أردت أن تعرف مقدار افتقارنا إلى المعاجم فانظر هل في مراجعتنا شيء من المعاجم الآتية: —

- (١) معجم لغوي تاريخي (٢) معجم اصطلاحى لفردات العلوم
 - (٣) معجم لغوي عام (٤) معجم للأدب
 - (٥) معجم للفلسفة وعلم النفس (٦) معجم الاسماء القديمة
 - (٧) معجم الاسماء الحديثة: في الجغرافيا والتاريخ
 - (٨) معجم الاسماء العربية (٩) معجم أسماء طبقات الحيوان
 - (١٠) معجم أسماء طبقات النبات (١١) معجم المصطلحات الاسلامية
- إلى غير ذلك مما يصعب حصره وتحديد الحاجة اليه.

درس غير كامل لآدابنا القديمة ، وعلى درس غير كامل للآداب الأوربية ، فكان في جملة أشبه بقايا السلع المختلفة إذا اجتمعت لتكون شيئاً جديداً ، ولك أن تتصور مقدار ما في ذلك الشيء المكون من تلك البقايا من تنافر ونقص ، إذا أنت صوّرت لنفسك حيواناً استحدثت صورته من أجزاء مختلفة من البقايا الحفرية جمعت من مختلف أجزاء الكرة الأرضية .

تلك حال الأدب ، وهذه طريق العلم في عهدنا الجديد ؛ فمن المسؤول إذن عن هذه الفوضى العظيمة ؟

من الحقائق التي لا نزاع فيها أن ما استحدثت حتى الآن من ألوان الأدب والعلم على نفسه ، إنما يرجع إلى جهود بضعة أفراد يمكن عدم على أصابع الديدن . على أن جهود هؤلاء كانت جهوداً متفرقة موزعة لم تجتمع يوماً على غرض رمت إليه ولا نظرت إلى هدف صوبت نحوه ووجهت عملها نحوه البلوغ إليه . ولقد عانى أكثر هؤلاء من عنت الدنيا ومن انصراف الناس عن الأدب والعلم ما جعلهم يفرون من ميدان العمل الواحد تلو الآخر ، ليفسحوا الطريق لغيرهم ممن يريدون أن يقامروا على موائد الأدب والعلم إما بمالهم وإما بعافيتهم ، تاركين للأقدار وزن ما جحدوا فيه وعملوا له السنين الطوال . ومن أعجب العجب أن أكثر الذين سقطوا في ذلك الميدان كانوا ممن حملوا لواء فكرة جديدة أو مذهب حديث حاولوا نشره في الناس وفيهم حرارة الإيمان وحاسة الاقتناع بصلاحيته ، وكان من الواجب أن يؤيدوا ولو إلى الحد الذي يمكنهم من إتمام رسالتهم وتأديتها على وجه يضمن في المستقبل سلامتها لتكون عدة من العدد التي يقوم من حولها جدل المستقبل . ولكن شيئاً من ذلك لم يعش في بيتنا الأدبية على صورة يتخيل معها أشد الناس تفاؤلاً بأن لها أثراً ثابتاً في عقل الجماعات العلمية أو الأدبية في هذه البلاد أو في غيرها من بقاع الشرق .

فلا نكران إذن في أن الأفراد قد قاموا بأوفر نصيب في تنشئة تلك الجرثومة التي تبعث في أدبنا شيئاً من مجال الحياة ، ولا يطالب الأفراد مطالباً أكثر مما جحدوا له إلا ويكون إلى الظلم والتجني أقرب منه إلى الانصاف والعدل .

غير أن أماننا بعد الأفراد الذين عملوا على تكوين التصور الأدبي الجديد جهات أربع يجب أن تتوجه إليها بالكلام في ختام هذه الكلمة

فإن الأدب والعلم لم ينلها حتى الآن نصيب من تقدير ظهر لهم من الجاه والمال ما يكفل لأفراد يمتازون في المعرفة على اختلاف

ألوانها لإبراز آثارهم وتسجيلها في تاريخ العصر الذي يعيشون فيه ولقد كان لظهور العلم والمعرفة في القرون الوسطى الأثر الأعظم في انقل العلوم إلى أوروبا ، كما كان لهم في العصر العباسي الأثر الأدنى في نقل العلوم والمعرفة إلى الشرق . وفي مصر والله الحمد فئة من هؤلاء ولكنهم لا يفكرون في الأدب أو في العلم أو في حماية حرية الفكر إلا كما يفكرون في أنفه الأشياء التي تمر بهم في الحياة . وهؤلاء لا يستحقون من كل نصير للأدب أو حليف للعلم إلا أشد اللوم والتفريع . ولقد برهن هؤلاء على أنهم في هذا العصر ، عصر النور والمعرفة ، أقل إجلالاً للعلم وتقديراً للمعرفة والأدب والفن ، من أمراء الممالك رحمهم الله ، وقد ازدهر عهدهم بالأدب واستنار بالعلم ، لأنهم كانوا ولا شك من أشد الأمراء المسلمين رعاية لآثار العقل والفن أدية كانت أوفية . لقد كان أمراء الممالك يظهرون لرجال العلم نصراً لرجال الأدب وفي معتقدي أن ذلك أنخم وأروج ما خلفوا لأعقابهم من صالح الأعمال .

بقي بعد ذلك جهات ثلاث : الأولى وزارة المعارف ، والثانية الجامعة المصرية ، والثالثة الأزهر الشريف ، ولا أعلم لماذا لا يكون في كل من هذه الجهات مؤسسات عليا لترجمة ما يعينها من المؤلفات قديمة وحديثة ؟ اللهم إلا أننا لم ندرك بعد أننا في نهاية الأهم المنعقدة من حيث العلم والمعرفة والعناية بنقل العلوم والمذاهب الأدبية والفلسفية إلى لغتنا العربية الميئة سيظل أدبنا وعدنا ناقصين من نقل المظان والأهميات إلى العربية ؟ فهل نحن فاعلون ؟

اسماعيل مظهر

واجب !

ما الذي يمنعك من أن توفر لنفسك القومسيون ومصاريف المحل و... الخ إذا وجدت أمامك مورد مصرى يستورد لك الصنف من أشهر فبارك ألمانيا ويسلها لك رأساً بتكاليفها فقط

جرب

قلم حبر الكتابة سفنكس القلم الأنيق ذو الريشة الذهب المضمونة عيار ١٤ مثله في السوق يباع بثمانين قرشاً . أرسل فقط ٤٠ قرشاً إلى حسن حسين شارع الطيران نمرة ٣١ مصر الجديدة وللخارج زيادة خمسة قروش يرسل إليكم الطلب في الحال مطلوب وكلاء في الشرق والأقاليم للقلم ولاصناف أخرى بما نستورده من الخارج